تحية إلى سلمى الحفار الكزبري

■ تربطني بالأديبة السيدة سلمى الحفار الكزبري روابط الود والاحترام، روابط أسرية يعود تاريخها الى قرن من الزمن إلا قليلاً، فقد تجاورت أسرتانا في السكن والعمل، السكن في الشاغور والعمل في سوق مدحت باشا، وامتهنتا المهنة الواحدة تجارة وصناعة المنسوجات (صايات الديما والألاجا والحريرية والشماغات...الخ)، واستمرتا جواراً حتى بعد انتقالهما من الشاغور الى حي الروضة، وكانت أسرتانا تدينان بالولاء للكتلة الوطنية التي قادت النضال الوطني ضد الاستعمار حتى كان الاستقلال، وكان والد الأديبة الكبيرة الرئيس لطفي الحفار احد أركانها.

في ٥/١١/٧٠ أهدتني السيدة سلمى الحفار مجموعة قصصها (الغريبة) وفاء منها لهذه الروابط مذيلة بتوقيعها مع كلمات عذبة عطرة.

في بداية الأحداث اللبنانية توافد العديد من الشخصيات الأدبية والسياسية والاقتصادية اللبنانية والسورية المتواجدة في لبنان الى المصايف السورية، وقد أقام احد أقاربي حفل عشاء تكريماً لهم مع حضور دمشقي حاشد.

دخلت حديقة الاحتفال فرأيت المدعوين وقد توزعوا على الموائد العامرة التي فيها ما لذ وطاب من مآكل دمشقية شهيرة، ورأيت في ركن بعيد المرحوم الأستاذ العلامة ظافر القاسمي (زميل والدي في الكلية العلمية) والى مائدته الأديبة سلمى الحفار الكزبري وجمعاً من الحضور، اتجهت أنظاري الى ذلك الركن، ففيه من الدسم والغذاء الروحي ما هو ألذ وأطيب من كل مآكل.

كانت من بين الجالسات الى تلك المائدة سيدة لبنانية من عائلات بيروت العريقة، سبعة من أفراد عائلتها اعتلوا المناصب الوزارية، عرفني عليها الأستاذ القاسمي مازحاً: مدام السبع وزرا وكانت تلك السيدة لا تتوقف عن التدخين أبداً، ما ان تطفىء سيجارتها الاولى وهي في منتصفها حتى تشعل الأخرى، تتقن لغات عدة ذات ثقافة عالية، كلامها

ممزوج بين هذه اللغات، فكلمة بالفرنسية وأخرى بالانكليزية أو اللاتينية ثم كلمة بالعربية...الخ.

وعند سماع بعض عباراتها المفرنجة لم تستطع الأستاذة الحفار ضبط نفسها، فقالت موجهة الحديث الى هذه السيدة: أحب ان أعرفك بنفسي، أنا سلمى الحفار الكزبري أتقن كما تتقنين العديد من اللغات الأجنبية، وكانت أسرتي في مطلع القرن تملك حماراً أبيض في حين لم يتمكن من الحصول على مثله الكثير من الناس في ذلك الزمان يوم لم تتواجد السيارات بعد، وأنا من أسرة تجارية معروفة، والدي لطفي الحفار كان تاجراً وعضواً في مجلس ادارة غرفة تجارة دمشق، ثم صار نائباً فوزيراً فرئيساً لمجلس الوزراء، وأنا زوجة سفير في الخارجية ولي العديد من المؤلفات الأدبية في لغات مختلفة.

ليس عيباً ان نتحدث في اللغات الأجنبية، بل هي ظاهرة حضارية، ولكن العيب ان ننسى الأصالة وننسى التراث وننسى لغتنا الأم.

عقبت على ما ذكر بتوجيه حديثي الى السيدة اللبنانية: أراك تتعجبين من اندفاع السيدة الحفار وحماسها، فهي حفيدة الصوفي الكبير السري السقطي، إذاً لا غرابة في موقفها هذا، وعندما سمع الأستاذ القاسمي ما تحدثت، سأل الأديبة الحفار إذا كان ذلك دقيقاً؟ فأجابت بالايجاب.. انه من أجداد والدتي.ثم سألني الأستاذ القاسمي فيما إذا كنت أعرف الرئيس لطفي الحفار شخصياً؟ فقلت له:عرفته منذ كنت طفلاً في العاشرة، كان يتردد الى منزل جدي ليترأس اجتماعات اللجنة التأسيسية لبناء مسجد الروضة في دمشق، فقد كان جدي احد أعضائها أيضاً، كان ذو شخصية محببة، تلفت انتباهي نظارته المدورة المميزة، دمثاً لطيفاً يسألني كلما رآني عن آخر علامة حققتها في المذاكرة، وما أكثر العشرات التي كنت أذكرها أمامه، وأنّى لي غير ذلك وأنا أمام الرئيس الحفار.

تحدث الأستاذ القاسمي عن وطنية الرئيس الحفار ومقاومته للاحتلال، ثم قال: ان أهالي دمشق وجميع سكانها مدينون للرئيس لطفي الحفار بكل قطرة ماء يشربونها في منازلهم، فهو احد مؤسسي لجنة مياه عين الفيجة التي أوصلت المياه الى كل منزل في دمشق، ثم تابع يقول: انه حلو المعشر مرهف الحس ذواقة لكل جميل، يطرب للموسيقى الأصيلة القديمة، كان مجلسه ندوة يلتقي فيها صفوة الأدباء والشعراء وأهل الفكر والرأي. ولعله من الاجحاف الحديث عن الرئيس الحفار في مقالة كهذه، بل سوف أتحدث عن حياته ونضاله وخطبه ومقالاته الاقتصادية في بحث آخر، وقد تتاح لي الفرص وانا عضو في مجلس ادارة غرفة تجارة دمشق في الرجوع الى محاضر جلسات الغرفة التجارية أثناء عضويته للاطلاع على آثاره وآرائه.

ولعل خير ما وصف به انه ثلاثة رجال في رجل:

سياسي.. اقتصادي.. أديب.. وقل ان تجتمع هذه الصفات في رجل واحد، صفات تتنافر أحياناً وتتعادى أحياناً أخرى، ولكنها في شخصية الرئيس الحفار اجتمعت منسجمة في جميع الأحيان.■

نزار نسيب القباني